

٤٠ مع العبد الصالح

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

أفاض علماءنا في العبد الصالح: هل كان نبيا؟ والذى نقف عنده أنه كان عبدا صالحا، حدد الحديث الشريف اسمه، وإن لم يعرض لنبوته، وتحدثوا عن مفهوم العلم اللدني. يقول الإمام الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾: يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده، من عند الله، من غير واسطة. والصوفية سمو العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية. وللشيخ أبي حامد الغزالي رسالة ((فى إثبات العلوم اللدنية)) ثم أخذ في شرح أقسام العلوم، وكيف أن النفس إذا صفت تهيأت لاستقبال الأنوار الإلهية، وفاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار.. فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ. ووراء أسرار لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب، (مفاتيح الغيب ١١: ١٥٠ - ١٥١).

ولقد كان هذا بابا واسعا دخل به في الإسلام ما ليس منه وتسربت ممارسات وأفكار هندوكية وبوذية ويونانية وفارسية وابتدعت بعض الفرق الإسلامية طقوسا في ذكر الله، ما أنزل الله بها من سلطان.. حتى وصل بعضها إلى الرقص الإيقاعي على النغمات الموسيقية باسم الإسلام، ودخلت خيوط من الفكر غير الإسلامى في هذا النسيج الصافى، وأصبح ماتستريح إليه نفس شيخ من الشيوخ، أو رأس طريق من الطرق، يرى كأنما هدى إليه عن طريق المكاشفة والفيض الإلهي..

قصة موسى والخضر محددة الأبعاد: في أن هذا العبد من عباد الله الصالحين. وأن الله أرسل إليه موسى ليتعلم علما، علمه الله إياه، وليعود موسى إلى قومه مستفيدا من هذا العلم. والله - سبحانه وتعالى - الذى أخبرنا أن هذا العبد الصالح تصرف بأمر الله.. أما كيف؟ فهذا من الغيب الذى حجبته الله عنا

فمعرفة - في هذه الحدود - مرجعها القرآن الكريم؟ والحديث الشريف. وليس لنا - وما يكون لنا - أن نبحث وراء ذلك فالوحي الإلهي المنزل على المصطفى ﷺ انقطع عنا بانتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. وترك الله تعالى لنا كتابه، وبيان الكتاب في سنة رسوله، والعقل الذي ن فكر به، وليس وراء ذلك مصدر.

ونحن - كمسلمين - لا نملك أن نحكم على أي قول إلا في الحدود الأساسية التي بينها القرآن ووضحتها السنة. هذه هي المقاييس الأساسية.. فإذا جاء أي عالم، مهما تكن منزلته، وقال إنني رأيت في المنام كذا، أو ألقى الله في روعي كذا.. عرضنا أمره على كتاب الله وسنة رسوله. فما وافق الكتاب أخذناه، وما عارض الكتاب رفضناه، وما اختلفنا فيه رددناه إلى أهل الذكر ليعلمه الذين يستنبطونه، ويستطيعون تقيمه.. وفي هذا نظل بالكتاب والسنة مستمسكين، وفي نفس الوقت، نقابل مشكلات الحياة بالاجتهاد الذي لا يصدم نصا، مقدرين تغير الظروف والأيام، وتغير الأحكام الاجتهادية مع مسار الحياة..

هذه أمور فصل القول فيها علماء اتخذوا الكتاب والسنة نبراسا، واستطاعوا أن يعيشوا دينهم وعصرهم.

إن العالم الإسلامي الآن يلقى من المشكلات والتحديات الحضارية ما يفرض علينا مقاتلته والتغلب عليه، وحشد الطاقات الروحية، والمادية للانتصار في معركة الحياة.. ومن هذه الزاوية. تأتي النظرة إلى القصص القرآني، وكيف يمكن أن يدعم هذه الطاقات ويوجه الشباب إلى الإنتاج والإبداع وموازة الفكر المعاصر، ثم التفوق فيه.

وإن أبرز ما تميز به جيل الصحابة مع الرسول ﷺ أن أهدافهم كانت واضحة: استطاع المصطفى ﷺ أن يكون الفرد المسلم والمجتمع المسلم. واستطاع الأفراد كأفراد وكمجتمع، أن يحملوا أمانة الإسلام اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، وأن يحموا قاعدة الإسلام في الداخل ويدفعوا عنها في الخارج، وينشروا الإسلام، وأن تكون من جهودهم حضارة لها وجودها ومكانتها وإبداعها.

كيف استطاع الإسلام أن يفجر هذه الطاقات؟ وأن يجمع موجاتها في تيار منتظم كأنه نهر الخير، ينشر الخصب والنماء على ضفافه، ويروى ساكنيه، ويبيث بأبنائه وثماره إلى آفاق بعيدة؟ هذه هي القضية الرئيسية..

وفى قصة موسى والخضر جوانب من أدب طلب العلم، والتربية النفسية والفكرية.. وهو أدب يمثل - والله أعلم - العبر الكبرى في هذه القصة.. ومنها يكون ارتباط الشباب بها، وجدوى دراستها..

والآن فلنصحب - موسى عليه السلام - وهو من أولى العزم من الرسل. موسى كلیم الله الذي أجرى الله له - بأمره - من المعجزات الكونية ما تحفظ جميعا.. وهو في جلال الرسالة وفيض ما أعطاه يبعثه الله تعالى ليتعلم من إنسان لا نعلم من أمره، ولا يعلم هو إلا ما أخبره الله به، وما أخبرنا به في كتابه، وعلى لسان رسوله.. فما أبرز آداب قصة هذا التعلم، وهذه الرحلة العملية؟ كأنها في اصطلاحنا المعاصر - تجرية ميدانية - أو دراسة ميدانية بين موسى وهذا المعلم المجهول.. إلا من إمارات بينها الحق تبارك وتعالى.. هذا المعلم الذي ظهر من ضمير الغيب، في زمان ومكان محددين، وانتهى أمره بعد القصة.. فلا نعلم عن حياته أين كانت من قبل، ولا من بعد، ولا نعلم أين قبره، ومن قومه.. كل الذي نعرفه أن اللغة التي تكلم بها كانت لغة مشتركة، وإلا ما أمكن التفاهم.. كذلك مع أهل القرية التي استطعنا أهلها..

- ١- أول هذه الدروس تلتف طلب العلم مع العالم مهما تكن الفروق بينهما، ومهما أحس المتعلم من كرامة الله السابقة له. فمن هذه الكرامة حسن الطلب ومعاملة الناس. ويبدو هذا في قوله: ((هل اتبعك)) فجعل نفسه تابعا للعبد الصالح.
- ٢- ومن دروس التلطف الاستئذان في هذه التبعية وهذا أيضا في قوله: ((هل أتبعك)).
- ٣- إظهار الرغبة في الاستفادة والتعلم. وهذا قوله: ((على أن تعلمني))
- ٤- والإعلاء من شأن المعلم وذلك في قوله: ((مما علمت)) فما ستقوله لى هو بعض علمك.
- ٥- تحديد الهدف من العلاقة، فهي ليست مجرد رحلة متعة أو حب استطلاع، وإنما هي مشاركة: اتباع وتلطف من أجل العلم.
- ٦- رد العلم إلى الله تعالى، فهو - سبحانه - صاحب الفضل عليهما جميعا. وهو سبحانه الذي ساق موسى إلى الخضر. وأوحى إلى الخضر استقباله وتعليمه. وذلك قوله: ((مما علمت)).

- ٧- في قوله: ((رشدًا)) طلب الهداية والرشاد.. فمهما يكن الإنسان في وضع، ففوقه من هو أفضل. ومهما يكن في علم، فالناس جميعا قال الله فيهم: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.
- ٨- في قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ إشارة إلى وجوب حركة العلم. فكما علمك الله، جئت إليك لأتعلم. والعلم كالنور والماء لا يحبس. هذا فضل من الله عليك، فعلمني مما علمت، وسأعود إلى قومي لأعلمهم كما تعلمت.
- ٩- وأيضاً في قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ إشعار بأن الاتباع ليس بين فرد وفرد، مهما تكن مكانة كل منهما، وإنما مرد هذا إلى الله.. فالعالم على طريق الله، والمتعلم في اتباع العالم، إنما يتبع طريق الله. وليس في الأمر خضوع فرد لفرد.. ولنستحضر هنا الدقة في قول ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤). الإسلام مع سليمان وهذه صحبة الحق. والإسلام منها ومن سليمان لله رب العالمين، وهذا هو طريق الحق.
- ١٠- ولا ينفي هذا أن المتعلم عليه أن يحسن التلقى من المعلم، فلا ينازعه الأمر، ولا يسابقه بالاعتراض. فإن الخضر وعد موسى بالشرح والتفسير في الوقت الذي يراه.. والذي كان من موسى المبادرة بالأسئلة قبل أن يحين وقت الحوار والشرح. فالأمر ليس اتباعاً مطلقاً، ولا تسليمياً بغير دليل، وإنما هو نظام في الدراسة.
- ١١- ويبدو جلال العلم ومكانته في أن الرحلة كانت من أجل العلم لا طلباً لجاه أو عرض من أعراض الدنيا.
- ١٢- كما يبدو جلال العلم في موقف المعلم والأسلوب العملي الذي اتبعه والمراحل التي مرت بها التجربة مع نبي من أولى العزم..

٤١ في السفينة

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

هذا هو الدرس الأول أو التجربة الأولى في رحلة العلم مع موسى والخضر..

ونود فيها أن نربط بينها وما سبقها من آيات تبين سلوك المعلم، بعد أن عرضنا سلوك المتعلم..

لقد وصف الله تعالى الخضر في الآيات السابقة بقوله: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ فهذه صفات ثلاث:

الأولى: العبودية. وهى أكرم ما يصف الله به إنسانا: نبيا كان أم غير نبي..

وصف الله تعالى بها المصطفى ﷺ في ليلة الإسراء فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي

أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۗ ﴾ (الإسراء: ١) ووصفه بها في المعراج بقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ (النجم: ١٠) ووصفه بالعبودية وهو يحمل مسئولية الدعوة إلى الله: ﴿ وَأَنَّهُ

لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن: ١٩) ووصفه بها وهو

يتحدى الكفار، ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾

(البقرة: ٢٣). وبالعبودية كرمه وبالقرآن معا في قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ

عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ (الكهف: ١).

كما وصف بها عباده الأخيار في قوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ

عَلَىٰ الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

وهذا العبد الصالح ليس متفردا بهذه الصفة، ولكنه كما وصفته الآية

الكريمة: ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾. فعلى شاكلته غيره وعطاء الله لا ينفذ، ورحمته

وسعت كل شئ.. فلا تظنوا الخضر بدعا من الناس غير مسبوق ولا ملحوق.. وفى هذا ما يورث النفس لله تواضعا، فمهما أنعم الله على إنسان فليذكر أن لله عبادا غيره، وأن فضل الله ورحمته قريب من المحسنين.

وفى هذا نجد مقابلة كريمة بين ما جاء في بعض الأحاديث من إحساس موسى بمكانته، وبين وضعه في مكانة المتعلم ليرتفع بها قدره عن طريق المزيد من التواضع لله وعباده، بأسلوب عملى، لا تقتصر على التلقى، وإنما يمتد إلى الممارسة، التى تتنوع فيها الموقف مع وحدة الهدف، وتوضح فيها - أكثر فأكثر - شخصية المعلم وأسلوبه في معالجة القضايا التى بين يديه، وهو اتضاح تتعكس آثاره على المتعلم..

الثانية: الرحمة. وذلك قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾.. وتكبير الرحمة في الآية يفيد شمولها، فهي كالنور يشع في كل اتجاه. وهذه الرحمة فيض من الله وفضل.. فهي من عند الله.. والرحمة في ذاتها خير. وصدورها فضلا من الله خير. هل نذكر معها كلمة مريم ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧) وكيف تحس في تكرار لفظ ((عند)) نوعاً من الإيناس، والإقرار بفضل الله. زكريا يجد عندها الرزق. ومريم تقول: ((هو من عند الله)).

كذلك مع الخضر، آتاه الله الرحمة من عنده - سبحانه وتعالى - فهو يترفق بمن حوله. سنرى هذا الترفق مع موسى.. ترفقاً يبدو في قوله الأول: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾... ويلتمس له العذر فيعقب على هذا بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟ وهو بهذا يبدأ بالمستوى العادى للإنسان: أن يعجل بالسؤال ليستفيد إذا أشكل عليه الأمر. وليس في هذا أي عيب. ولكن في هذا الموقف يضاف إلى الرغبة في العلم الالتزام بنظام الصحة أو نظام التعلم. هذا أمر نفسى مضاف إلى الأمر العقلى. قل: إنه أمر سلوكى مضاف إلى مجرد المعرفة. لا يختلف - من حيث طبيعته - عن نظام إدارة الجلسات وتحديد أوقات الأسئلة والحوار..

ونحن نحس فيما سبق من بعض تصرفات موسى - عليه السلام - جانباً من الحدة والاندفاع، والمبادرة إلى تصرف يرجع عنه، بعد أن يهدأ..

وفى مراحل تكوينه اللاحقة مزيد من الدربة على ضبط النفس.. وتجربته مع الخضر إحدى هذه المراحل.

ولقد أدرك موسى ما يرمى إليه الخضر، وهو أنه محتاج إلى مزيد من الصبر والأناة. فكان قوله: ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾. وكما جاء قول الخضر ذا شقين هما ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ﴿٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ جاءت إجابة موسى في شقين أيضاً الأول الوعد بالصبر والثاني الطاعة في القول والعمل.

وعندما وعد موسى بهذين جاء قول الخضر محددًا ما اتفقا عليه.. قال: ﴿ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

ولا يحمل هذا الاتفاق وعداً صريحاً من الخضر بأن يخبر موسى عن تفسير ما يرى. وإنما عليه الصحبة والمشاهدة والمشاركة والطاعة، فإذا كان من أمر الله للخضر أن يخبر موسى بتفسير ما يشاهد، أخبره به وقتما يشاء، وإذا سكت عنه، فهو لا يفعل شيئاً إلا بأمر الله.. ولنذكر أن القصة كلها تتحرك ابتداءً بوحى من الله تعالى.

كل هذه آفاق من الرحمة في التعامل.. كانت في مطلع التجربة.

الصفة الثالثة: العلم. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾

وأنت إذا نظرت إلى المعلم المأمول وجدت هذه الركائز الثلاث أساس حياته، إيمان بالله وعبودية له، فهذا هو الخيط الذي يربطه بربه، رحمة يشيعها فيمن حوله ويعامل بها من حوله، وهذا هو الخيط الذي يربطه بالناس، علم يعيش به وينفع الناس به، وهذا هو الخيط الذي يربطه بالمعرفة، ثم هذه الخيوط الثلاثة في تماسكها - كأنها الحبل المجدول - يرتفع بها الفرد كما يرتفع بها المجتمع وتتبادل التأثير، بل ويتكامل تأثيرها على الحياة والأحياء، ويبدو أثرها في الدنيا والآخرة.

والله تعالى وصف علمنا كله فقال: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
(الإسراء: ٨٥).

ووصف علمه - سبحانه - وصفاً بقربه من أذهاننا فقال:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي
وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (الكهف: ١٠٩)

وقال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أُخْرٍ مَّا
نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان: ٢٧).

فعند موسى من العلم نصيب، وعند الخضر من العلم نصيب، والإحاطة المطلقة من صفات الحق - جل وعلا - أما نحن البشر، فلنا علم الوحي الذي تلقاه المرسلون وحفظه لنا القرآن الكريم، وعلم من تجارب الأمم قبلنا وحولنا، وعلم نحاول معرفته في الأنفس والآفاق، أي في الإنسان والكون وعلم ننظم به، هذا كله في إطارات تتقدم بها الحياة، وتصعد إلى المزيد من الإبداع، في جو من التواضع وحب الناس..

وانطلق موسى والخضر، وركبا في السفينة، فخرقها. أين كان الخرق؟ ما حجمه؟ لماذا لم يذكر القرآن أن أصحاب السفينة اعترضوا، أو كان لهم موقف، كما سنرى في أهل القرية في المرحلة الثالثة؟ لقد بادر موسى: بوصف ما حدث بأنه شئٍ أمر.. شئٍ كبير، بعد أن سارع باستنكار: ﴿ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾؟ كان من المنتظر أن يعترض أصحاب السفينة وأنت تراهم أمامك يا موسى مساكين، فقال الخضر: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾؟، كل ما فعله الخضر أن ذكره بما كان بينهما. لم يقل له: أنت وعدت بكذا وكذا.. بالصبر والطاعة. ولكن ذكره بأول قوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

وبادر موسى إلى الاعتذار..

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ والإجابة من شقين: أولهما واضح: لا تؤاخذني بما نسيت، ولكن ما المقصود: ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ولم يكن من الخضر إلا التيسير..

هنا نجد جانباً مما يعانیه موسى من الرغبة الجادة في السيطرة على نفسه، وهى رغبة تكلفه بعض العسر، ولكنه جزء من ثمن العلم والتعلم. فطريق العلم فيه عسر وفيه إرهاق. ولكن ليذكر أبنائنا، أنه طريق الأنبياء والصالحين.

٤٢. الغلام والجدار

﴿ فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٥٦﴾ ﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٥٧﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾

هذه هي المرحلة الثانية من لقاء موسى والخضر.. كانت الأولى في ظاهرها إتلافاً لمتاع هو ملك للغير، ودون إذن منه ودون ظهور الحكمة في ذلك. وهو إتلاف كان من الممكن أن يؤدي إلى إغراق.. ولكن الذي بدا هو إتلاف جزء من السفينة. وهذا الجزء يمكن إصلاحه فيما بعد.

أما هذه المرحلة فالإتلاف فيها لا يمكن إصلاحه. إنه قتل نفس. وفرق كبير بين خرق السفينة وقتل الغلام.

ولفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصبي الصغير. وليس في القرآن تفصيل كيف لقياه، هل كان مع جمع من الصبيان أو كان منفرداً؟ وهل كان مسلماً أو كان كافراً؟.

وقوله تعالى: (بغير نفس) يدل على عدم وضوح السبب الداعي إلى ذلك، أمام موسى على الأقل فما ظهر من هذه النفس كفر، وما ظهر منها عدوان على نفس أخرى يستوجب القصاص، وإتلاف النفس في هذه المرحلة مما لا يمكن إصلاحه، من أجل ذلك كان قول موسى: ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ واضح أن هاتين

التجربتين لا تبعدان كثيراً عما سبق أن لقيه موسى في حياته، وكان يستطيع الربط، لو أنه أطال التأمل ولم يبادر بالتساؤل أو الاعتراض.

لقد ألقته أمه وهو رضيع في اليم. سفينة تابوت صغير، لا شرع ولا سكان ولا ربان، إلا رعاية الله فكأنه سفينة نوح باسم الله مجريها ومرساها ورحمة الله تدرك الرضيع كما تدرك الجنين والشيخ الكبير. وأيهما أقرب إلى النجاة: ملاحون مدربون وركاب كبار أم رضيع في تابوت يحركه تيار الماء؟ لقد كانت رحمة الله قريبة منهم جميعاً، وفي قدره سبحانه أن تتجو السفينة وأن ينجو الرضيع. والأمر كله إيمان وصبر وتصديق بوعد الله.

وكذلك قصة الغلام الذي قتله الخضر، إنها ليست بعيدة عن قصة الرجل الذي وكزه موسى وقضى عليه عندما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، ثم أصبح في المدينة خائفاً يترقب، وتأمراً عليه الملاً فخرج من المدينة خائفاً يترقب وتوجه تلقاء مدين.

هل كان موسى يخشى أن تتكرر التجربة ؟ وأن يتعرض وصاحبه لغضب القوم؟

وفي هدوء لم يرد الخضر عليه مفسراً، وإنما ذكره بالعهد: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ؟

وهذه الجملة تزيد عن سابقتها بكلمة (لك) كأن الخطاب موجه إلى موسى مباشرة. وزيادة المبنى في الجملة يدل على زيادة المعنى. وتغيير اتجاه الاعتذار..

لم يقل موسى هذه المرة ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ فالخضر ما أخذه وما أرهقه، إلا أن يكون مجرد التذكير مؤاخذاً وإرهاقاً.

واتجه موسى إلى نفسه - كأنما يريد أن يؤاخذها بما أسرعت فقال: ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾

ومرة ثانية نرى الإجابة ذات شقين: أن تتوقف المسيرة إذا سأل موسى. وقدم مبررات ذلك: قد بلغت من لدنى عذرا..

موسى هو الذى طلب الصحبة وقبِلَ شروطها، ولكنه هو الذى حدد كيف تنتهى. وفى هذا يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: (لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا قصصهم). (جزء من حديث ابن عباس عن أبي كعب: تفسير الطبرى ١٥: ٢٧٩ ط. الحلبي).

وتأمل هنا رغبة المصطفى في الاستزادة من العلم، وتمنيه أن كان موسى صبر.. ومن قبل هذا رغبة موسى في العلم. وكيف استفاد وأفاد.. وكان الصبر - مجرد الصبر - باباً إلى العلم. وبهذا القول من موسى لم تبق لنا مع الخضر إلا تجربة.

ولكن في حديث ابن عباس طرف آخر نقف عنده وهو تعقيب المصطفى عليه الصلاة والسلام على قول موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ قال: استحيا في الله موسى عندها (تفسير الطبرى ١٥: ٢٨٧ - ٢٨٨).

وفى رواية أخرى لنفس الحديث (رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدنى عذرا) (نفس المرجع ١٥-٢٨٨).

ننتقل إلى قول الله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ ۗ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۗ﴾ قال هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۗ سَأَنْتَبِئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۗ﴾.

وإذا كانت التجربة الأولى متعلقة بمال الآخرين، والثانية بقتل النفس، وهما - في ظاهرهما - فعل ظاهره العدوان فإن الثالثة تختلف عنهما اختلافاً أساسياً.. فهى في ظاهرها تقديم الخير لمن لا يستحق.

وواضح من سياق الآية أن موسى وصاحبه أتيا أهل القرية، وهما في حاجة إلى الطعام، وأن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما. وشر القرى هي التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه.

ولقد كان المنتظر أن يبرحها إلى قرية أخرى، ليدركا فيها ضيافة أو طعاماً..

ولكن نظر العبد الصالح فوجد جدراً يريد أن ينقض. جدراً به علامات تدل على قرب سقوطه.. ولا دلالة في القرآن على الجهد الذي بذلاه لإقامة الجدار، دون أن يطلب منهما أحد ذلك، ودون أن يطلب عليه أجراً، قبل الإقامة أو بعدها.

وحاول موسى أن يربط بين الجهد والأجر. ولكنه عرض هذا في أسلوب من التخيير يختلف عن أسلوبه السابق الذي وصف به ما رأى، أنه شيء أمر وأنه شيء نكر، وقالها في المرتين بصيغة جازمة.

هنا قال موسى للعبد الصالح: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿لو شئت، فالأمر لك. ولم يقل: (لاتخذنا)، كأنها إرادة مشتركة.

وهنا أعلن العبد الصالح نهاية مراحل التجربة قائلاً: هذا فراق بيني وبينك.. ثم بادر فربط بها مباشرة ما يود موسى أن يعرفه قائلاً: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، ولم يقل له سأنبئك بتأويل ما رأيت، فالأحداث شاهداها معاً.. ولكن الجزء الذي كان خافياً على موسى هو العبرة والحكمة في كل من هذه الأعمال: ما مصدرها؟ ما هدفها؟ ما علاقة أعماقها بالجزء الظاهر منها؟ ولنذكر هنا أموراً بين يدي التأويل:

أولاً: أن الخضر كان معروف لأهل السفينة، كما جاء في حديث ابن عباس: فانطلقا يمشيان على الساحل، فعرف الخضر، فحمل بغير نول (أى أجر)..(الطبري ١٥: ٢٧٨).

ولعله كان معروفاً لأهل أرضه ولم يرد في القرآن أنهم اعترضوا على ما صنع.

ثانياً: لا يذكر القرآن أن أحداً أخذه على قتل الغلام. الغلام كان مجهولاً لموسى والدليل قوله الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا ﴾ بينما هو معروف للعبد الصالح ، كما سيأتى فيما نستقبل من التأويل.

ثالثاً: والقرية التى لا تكرم الضيف كانت معروفة أيضاً للعبد الصالح.. بأهلها وأجبالها وطرقاتها وبيوتها. من أجل ذلك وقف عند جدار معين فيها يريد أن ينقض فأقامه..

كان تحرك العبد الصالح في أرض معلومة له وبين قوم معلومين ولأهداف معلومة.. وكل ذلك كان خافياً على موسى حتى أخبره به العبد الصالح بأمر من ربه.

٤٣- ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٦٨﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٦٩﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٧٠﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴿٧١﴾ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

ونود بداية أن نؤكد في هذه الآيات أمرين أساسيين

- الأول: التأويل الذى لم يستطع موسى عليه صبراً.
- الثانى: أن العبد الصالح فعل هذا مأموراً ، ومنفذا لإرادة الله تعالى.

والتأويل لغة. هو تفسير لشيء غير واضح ، وهو مشتق من الأول وهو الرجوع ، كأن تحصيل المعنى شبيه بالرجوع إلى المكان بعد السير منه. (تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهرين عاشور ١: ١٦).

وسنبداً بمشهد السفينة، فالغلام، فالجدار..

والسفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، يرتزقون من جهودهم، ويكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم. والمقصود من كلمة وراء في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ أنه يتعقب السفن الصالحة ليستولي عليها أو يسخرها لخدمته غصباً وقهراً. وليس المقصود موقعه المكاني: هل هو يسكن قبل أو بعد.

وجملة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ متفرعة على كل من جمليتي "فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ" و"وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ" ، فكان حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر. ولكنها قدمت خلافاً لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام، والعناية بإرادة إعابة السفينة، حيث كان عملاً ظاهره الإنكار، وحقيقته الصلاح، زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله، لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجباً في الإقدام على خرقها. والمعنى: فأردت أن أعيبها وقد فعلت.. فتصرف الخضر قائم مقام تصرف المرء في ماله بإتلاف بعضه لسلامة الباقي. وهو ارتكاب أخف الضررين. وهذا أمر لم يطلع عليه إلا الخضر، فلذلك أنكره موسى (التحرير والتنوير ١٦: ١٢-١٣)

ولكن في القصة وجهاً آخر.

موسى لم يكن من أبناء هذه الأرض، التي لقي فيها العبد الصالح، ووجود حاكم، ظالم مغتصب، لم يكن مما يخفى أمره على الخضر، ولعل ظلم هذا الحاكم مما لا يخفى أيضاً على المساكين، أو لعلمهم لم يعرفوا ما أصدر من أمر، باغتصاب سفينة المساكين فكان أن يسر الله تعالى لهؤلاء المساكين هذا العبد الصالح، لينقذ سفينتهم من الملك الغاصب ولذلك بأن يعيب السفينة فإذا رآها رجال المالك انصرفوا عنها..

فالتصرف كان لصالح المساكين وكانوا هم على ثقة بالعبد الصالح ولوعاب سفينتهم، لحكمة ستظهر مع ظهور رجال الملك. ويستطيع المساكين من بعد- أن يصلحوا سفينتهم، ويتابعوا الارتزاق منها.

والحكمة في هذا الأمر تبدو من وجوه:

١- أن لا يتسرع الإنسان في الحكم بمجرد رؤية جانب منه: كان من موسى المسارعة إلى الاعتراض عندما خرق العبد الصالح السفينة، والعبد الصالح

كان يدرك أطراف الأمر جميعاً: المساكين، السفينة، الملك الغصب رجال الملك الذين ينفذون أمره. موقعهم وترصدهم للسفن أو قطع الطريق عليها في مراسيها..

٢- أن الأمر لا يتعلق بفعل معزول عن صاحبه، فالذى خرق السفينة إنسان عاقل، وهو هنا في مرتبة المعلم ولقد مثل هذا أمام أصحاب السفينة، ولم يعترضوا عليه، أو لم يخبرنا القرآن أنهم اعترضوا عليه. لماذا؟ هذا عامل الثقة في العبد الصالح وكان متوفراً بينه وبين المساكين ولولا معرفة سابقة بينهم ما أركبوه بغير نول هو وصاحبه، ولقد أسقط موسى عامل الثقة هذا، ولم ينظر إلا إلى خرق السفينة بقصد الإغراق مع ما سبق من المساكين من فضل.

٣- أن للإنسان أن يرتكب خطأ أدنى في سبيل النجاة من خطر أكبر كالذى يهدم جداراً لينقذ من ورائه أو يكتم حريقاً أو يطفئه منعاً من احتراق الدار مضحياً بجانب منه.

٤- أنه كلما اتسعت دائرة المعرفة، كلما كان التصرف أقرب إلى الصواب. والمعرفة في أبعادها المكانية والزمانية والموضوعية وفي علاقاتها: أنوار تضيء الطريق إلى الاختيار الأنسب.

ننتقل بعد هذا إلى موضوع الغلام..

ولقد تكلم المفسرون عن هذا الغلام.. وأنه لو طال عمره لأرهق أبويه طفياً وكفراً..(نفس المرجع ١٦: ١٣، أحد الأقوال التي أوردها الفخر الرازي (١١: ١٦٢).

ومما ذكره الفخر الرازي (١١: ١٦٢): قيل: إن ذلك الغلام كان بالغاً وكان يقطع الطريق ويقدم على الأفعال المنكرة، وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه، والتعصب له، وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات، وكان يصير ذلك سبباً لوقوعهما في الفسق، وربما أدى ذلك الفسق إلى الكفر. أهـ.

ولعل الأقرب إلى العقل، أن الغلام قد ارتكب ما يوجب القتل، وأنه قد نجا من القصاص بسبب أو لآخر وأن الله - سبحانه - وهو الحكم العدل، قد سخر العبد الصالح للقصاص. وفي هذا صلاح الأبوين، اللذين وعدهما الله تعالى بذرية

خير منه، كما وصفها الله في كتابه ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾.

أما قول موسى: ﴿ أَقْتَلْتَنَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ فقد كان قولاً مبنياً على مجرد رؤية المشهد معزولاً عن أسبابه، ومرة أخرى نقول: إن موسى لم يكن من أهل هذه الديار حتى يحكم على نفس بأنها زكية لمجرد الرؤية أو اللقاء العابر، ويحكم على تصرف العبد الصالح، وهو من أهل هذه الديار، بأنه أتى أمراً نكراً.

أما القول بأن الله تعالى - بسابق علمه - قد أعلم العبد الصالح أن الغلام لو طال عمره لضل وأضل، فهو حساب على أمر لم يحدث ولن يحدث.. وكيف يحاسب الله الإنسان على ما لم يرتكب؟ الأقرب ديناً وعقلاً: أن الغلام أتى ما يستوجب القصاص، وأنه حتى لقي العبد الصالح كان مستور الأمر، أو بعيداً عن يد القصاص حتى أوقعه به العبد الصالح امتثالاً لأمر الله تعالى.

والحكمة هنا أيضاً واضحة هي: عدم التسرع في الحكم، ووجوب الإحاطة بجوانبه.

تبقى بعد هذا قصة الجدار. وتختلف في طبيعتها عن الأمرين السابقين: خرق السفينة وهو إتلاف مؤقت وجزئي، وقتل الغلام وهو إنهاء حياة، على أمل أن يبدل الله الأبوين خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.. هنا عمل خير دون أجر.. لأفراد مجهولين، يختفى وجودهم في القصة وراء أخلاق أهل القرية السيئة.. الأيتام لا يقدرّون على الضيافة، ولا يقدرّون على إقامة الجدار، ولا يقدرّون على الاعتراض على قومهم.. كل الجانب الإيجابي في حياتهم يلخصه القرآن في جملة قصيرة منيرة: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾.

ومرة ثالثة ربط موسى بين سوء أخلاق القرية، وأنهم لا يستحقّون عملاً صالحاً، وإذا عمل لهم أحد عملاً فليكن على مبدأ (هات وخذ).

هل كان العبد الصالح على علم بأمر الأب الصالح؟ وهل كان مؤتمناً على سر الكنز وقد حفظه الأب تحت الجدار، وحفظه حتى عن الصغار، لئلا تنزل ألسنتهم بكلمة عنه لأهل القرية الظالمة؟

وما قاله بعض المفسرين عن الإعجاز في إقامة الجدار، وأنه أشار إليه فاستقام، لانقف فيه عند مستوى الإعجاز، فليس عليه دليل من كتاب ولا سنة..

الذى أمامنا أنه أقام الجدار، وحفظ الكنز للغلامين، فإذا ما كبرا وأرادا تجديد البيت، فلن يجدا من القرية الظالمة عوناً، واعتمدا على الله وعلى أنفسهما ولن يكون معهما أحد عند العثور على الكنز.

ويختتم العبد الصالح قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۗ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۗ ﴾

وحذف التاء من تستطع يدل على سهولة الاقتناع بعد التأويل وفي أول القول كان الفعل: سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً.. وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى في لغتنا العربية.

٤٤- وما فعلته عن أمرى

لاتزال قصة موسى والعبد الصالح مصدر إشعاع فكري، علينا أن نزنه جميعاً بميزان الكتاب والسنة المطهرة، دون أن يجمع بنا الخيال بعيداً عن مسالك الشريعة.

بعض العلماء - وبخاصة بعض أهل التصوف - اتخذوا هذه القصة أصلاً بنو عليه قواعد موهومة.

وأود هنا أن نقرأ معاً قول عالم جليل هو الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتوير) (١٥: ١٦ - ١٦) نذكره مختصراً:

فأول ما أسسوه منها أن الخضر لم يكن نبياً وإنما كان عبداً صالحاً، وأن العلم الذى أوتيهِ ليس وحياً، ولكنه إلهام وأن تصرفه الذى تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا، ليكون مرجعاً لتلقى العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقيه.

وبنوا على ذلك أن الإلهام ضرب من ضروب الوحي وسموه (الوحي الإلهامى) وأنه يجئ على لسان ملك الإلهام، وقد فصله الشيخ محى الدين بن العربى... في

كتابه (الفتوحات الملكية) وبين الفرق بينه وبين وحى الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها في كتابه وجزم بأن هذا الوحي الإلهامي لا يكون مخالفاً للشريعة، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز. وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون ما يسمى بالإلهام حجة. وعرفوه بأنه إيقاع شيء في القلب يتلج له الصدر، وأبطلوا كونه حجة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوماً، ولتفاوت مراتب الكشف عندهم، وقد تعرض لها النسفي في عقائده. وكل ما قاله النسفي في ذلك حق. ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تتضبط.

ثم يقول الشيخ الطاهر بن عاشور بعد هذا:

والأظهر أن الخضر نبي - عليه السلام - وأنه كان موحى إليه بما أوحى، لقوله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ وأنه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قصت في هذه السورة. وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفترض. وأن يحمل ما يعزى إليه من بعض المتصوفة الموسومين بالصدق، أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم، أو على غشاوة الخيال التي قد تخيم عليهم ويختم تعقيبها بقوله:

فكونوا على حذر ممن يقول: أخبرني الخضر. أه.

وكذلك من الناحية اللغوية والبلاغية ترى في القصة وقفات منها: استعمال ثلاث صيغ للفعل (أراد):

- أولاً: في خرق السفينة قال: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾
- ثانياً: في قتل الغلام قال: ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾
- ثالثاً: في إقامة الجدار، قال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾

كيف اختلفت الإضافة في هذه الإيرادات الثلاث وهي كلها في قصة واحدة، وفعل واحد؟

يقول الفخر الرازي: إنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه.. فقال ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ والإرادة هنا قصد، وعمل لهدف محدد من قبل. ولذلك لم

يقول العبد الصالح (فَعَيْتُهَا) لمجرد إحداث الخرق. وإنما كان إحداث الخرق إرادة وحركة واعية.

أما القتل فغير عنه بلفظ الجمع (تبينها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية) ويمكن أن نضيف إلى هذا أن إرادة القتل لها شقان: الأول تنفيذي لا يخرج عن خرق السفينة ولو كان وحده لنسبه العبد الصالح إلى نفسه، ولكن هناك شقاً ثانياً هو الأمل المنتظر المرجى من الله تعالى: غلام ﴿ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ وهذا من فضل الله وكرمه.. واجتماع الأمرين: القتل وهو سلب حياة، والأمل المرجو وهو عوض وفضل، يلائمه فعل الجمع فأردنا.

أما الفعل الثالث (فأراد ربك) فلقد أبى تواضع العبد الصالح وأخلاقه التي أدبه بها ربه إلا أن يمر على إقامة الجدار. وهو جهده - دون أن يذكره. وكأنه يستره حتى من القول والذكر. وأبرز الجانب المستقبلي من إقامة الجدار، وهو أن يبلغ اليتيمان أشدهما ويستخرجا كنزهما، كما أبرز الجانب التاريخي من القصة في قوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ والجانب الحاضر منها في قوله: ﴿ وَأُمًّا أَلْحَدَارُ فَكَانَ لِعُلَمَاءِ يَتِيمِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾.. ومر مسرعاً على ما صنع، ورد الخير كله إلى الله، والإرادة كلها لله فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ﴾.

وتأمل هنا استخدام لفظ (ربك) بالضمير المتصل المؤكد للربوبية والرعاية، ولفظ أشدهما ليعتمدا على نفسيهما، ويستخرجا كنزهما فهما، أصحاب الحق فيه.. كل هذا ﴿ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ﴾ ربك أنت يا موسى وربى، ورب الغلامين اليتيمين، ورب الأب الصالح، ورب الأبوين المؤمنين، ورب المساكين الذين يعملون في البحر ورب كل من التجأ إليه، واحتتمى بجانبه، وطرق بابه، واتبع سبيله وسار في نوره. ربنا جميعا ورب العالمين.

ثم قال: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ولم يقل (هذا).. استعظماً لما حدث، ورفعاً لمكانته، تماماً كما تقرأ في أول سورة البقرة: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا

رَبِّ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ لفظ هذا، مكان، ولفظ (ذلك) مكان، ثم عاد بعد هذا فقرب إليه الأمر بقوله: ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ بتخفيف كلمة يستطيع التي جاءت في صدر القول.

وفى هذا القول جانب كريم من الإيناس فهو لم يقول له: (ذلك تأويل ما لم تصبر عليه) فذكر الاستطاعة ونفيها.. يدل على بذل الجهد في محاولة الصبر ولقد كان لموسى ما يدعوه إلى الاعتراض، ولكن كان عليه أن يغالب نفسه وأن يلتزم بما شارط عليه العبد الصالح والتجربة - حتى للأنبياء - مدرسة ترتفع بها درجاتهم عند الله ويستفيد منها المؤمنون ولقد خاطب الله تعالى رسوله الخاتم بعد أن قص عليه قصص الأنبياء في سورة الأنعام:

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَتُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَهُ ۗ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ (الأنعام: ٨٩، ٩٠).

وقفه أخرى مع قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ وكيف ينتقل صلاح الآباء إلى الأبناء هذا أمر نراه في حياتنا اليومية وهو تطبيق عملي لقول الله تعالى: ﴿ وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِن خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء: ٩-١٠).

وهى من الآباء عدل في المعاملة، وعدل في الميراث لا يتركهم عالة يتكفنون الناس، ويورثهم مع الستر الاقتصادي حصانة الإيمان والأخلاق والعلم تنير لهم الطريق، وتعصمهم من الانحراف، وتحفزهم إلى العمل، وتقيمهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك. وفى لقاءهم الناس، وهم يحملون اسم الأب الصالح، ويحملون معه قبسا من أخلاقه الطيبة، سيجدون قبولا، لا يجده نظير لهم، كان أبوه ظلما أوقاسيا أو غاصبا.. وغير بعيد أن يظن الناس في لقاءهم أبناء الظالم أو الباغى أنهم على سنن أبيهم.. هذا في الظاهر

أمامنا.. أما في الداخل، فإن العشرة الطويلة بين الأب الصالح وأبنائه الصالحين.. أو حتى معايشة ذكره الطيبة، تترك الأثر الصالح في نفوس الأبناء..

وأكثر من عمل طيب يعمله الأب الصالح ولا يملك من تقبل الجميل أن يردّه في حياته، فيحاول هو أو أبنائه أن يردوه إلى أبناء الأب الصالح بعد رحيله..

وما أعظم إشعاع قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾

وما أعظم إشعاع القرآن الكريم.. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ

مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥-١٦﴾.

٤٥- ويسألونك عن ذي القرنين

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٢١﴾ إِنَّا مَكَّنَّا

لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٢٢﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾

نعود إلى سؤال التحدى الذى تعاون كفار قريش مع اليهود في المدينة على توجيهه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. وعاد النضر بن الحارث وعقبة بن معيط بالأسئلة الثلاثة: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإن حديثهم عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه وسلوه عن الروح وما هو. (الفخر الرازى ٨٣: ١١)

ومن طبيعة السؤال أن يكون فيه ما يوجه إلى الإجابة وكل الذى جاء عن

القصة التى نحن بصددّها ((وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها))

والعناصر الواردة في السؤال، أنه رجل، وأنه طواف، وأنه في طوافه قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، بعبارة أخرى: رجل غلب على حياته عنصر الطواف الواسع شرقا وغربا ألا نرى ابتداء أن الإجابة يمكن أن تنطبق على أكثر من رجل في أكثر من عصر.

وجاء النص من أوله يحمل مزيداً من التحديد، ولكن لا يحول دون تعدد

الأقوال ويعطى كما سنرى مزيداً من التفصيل، في أمور ترتبط أكثر ما ترتبط

بأهداف القرآن من الإيمان والعدل والقوة، ووضعها في خدمة الحق، والتعبير العملى عنها بالجهد المشترك وحماية الضعفاء، وتحويل سلبياتهم إلى إيجابيات.. جاءت القصة تؤكد هذا كله، دون أن تقف عند اسم الرجل وعصره ومدى طوافه الشرقى والغربى ووصوله إلى مكان أطلق القرآن عليه اسم ((بين السدين)) ثم ذكر أسماء شعوب تعددت فيها الأقوال ووصفها بالإفساد، وجعل من جهد الرجل الطواف ما يحول دون ذلك.

فليس من منهج القرآن الكريم ذكر جزئيات القصص التى لا ترتبط بمقاصده الكبرى، ولا متابعة، أسلوب التحدى الذى أعان فيه يهود المدينة كفار قريش.. ولندكر أنهم وهم موحدون في أساس الدين، يقبلون التعاون مع مشركى العرب على الإسلام ثم كانوا - من بعد - أكبر أعوان قريش في المدينة على حرب الإسلام، والتأمر على قيادته وقاعدته.

ولننظر الآن إلى هذا التعبير ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الذِّى الْقَرْنَيْنِ ﴾ ونتساءل ما المقصود منه؟ وهل كان تعبيرا متداولاً في الدول التى سبقت الإسلام وعاصرته.. ثم استمر في الدول التى جاءت بعد قيامه؟

التعبير يدل على ثنائية متصلة، أقرب نموذج لها من مشاهد الكون: قرنا الهلال وهما طرفاه. وهو مشاهد في حياة الحيوان، ويرتبط بالقوة والبأس. قرنا الثور والكبش والتميس وبالجمال أيضاً: قرنا الغزال.. ومن هذين المصدرين القوة والجمال انتقل التعبير إلى عالم الإنسان برجاله ونسائه.. فالقرن هى الضفائر أو الجداول، للكبار والصغار.. كما دخلت القرون في تصميم التيجان: إما ربطاً لها بالقوة، أو الجمال أو المصدر السماوى، كما دخلت في تصميم خوذات المحاربين في كل من العروض الوسطى حيث عاش الفرس والروم والحميريون في اليمن، وفى العروض الشمالية عند رجال البحر من الفايكنج في اسكندناوه، وعرفتها الحضارات القديمة كالحضارة المصرية.

وذهب بعض المفسرين (محمد أسد في رسالة القرآن ص ٤٥١-٤٥٢ ط. دار الأندلس. جبل طارق ١٩٨٠) إلى أن القرنين هما لقاء الحق والقوة في القصة، أو لقاء جيلين من البشر. والقرن - لغة - هو الجيل من الناس. ويوضح هذا الحديث الشريف: خير القرون قرنى.

وبهذا المعنى جاءت أكثر الآيات التي ورد فيها اللفظ في القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وذلك في قصة قارون (القصص: ٧٨)

وكان القول بأن القرنين هما العلم والقوة أو الحق والقوة، يقابل مجاء في قصة موسى والخضر من ثنائية سابقة بين الظواهر والحقائق.

ولقد استمر استخدام هذا الرمز بعد الإسلام: ففي مملكة الفونج السنادية الإسلامية في السودان وادي النيل وكان ازدهارها ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين كان رمز السيطرة والملك غطاء رأس له قرنان (الطاقية أم قرنين).. ولعله كان استيحاء من قصة ذي القرنين. وكان القوم مركز نشاط إسلامي كريم.

ثم يأتي قولاً لله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ والتلاوة هنا إعلام عن طريق الوحي. فليس هذا العلم من عندي، ولا هو من كسبي وإنما هو مما أوحى إلى ربي، وهذا الذي سأتلوه عليكم هو بعض خبر ذي القرنين، وليس استقصاء لتاريخه. هذا ما تقيدنا كلمة منه، وكلمة (ذكرا) تفيد الخبر، كما تقيد العبرة في ذات الوقت..

وقد حاول بعض المفسرين نقل القصة من التعميم إلى التخصيص وتحديد شخصية ذي القرنين من الناحية التاريخية، والعصر الذي عاش فيه والمدى الذي وصل إليه شرقاً وغرباً. وموقع السر الذي أنشأه ولكن ألا يجدر بنا، وقد عرضنا صورة شاملة عن (القرنين) في الحياة والتاريخ، أن نعرض استخدام القرنين في الفكر اليهودي، وهم الذين اختاروا الأسئلة الثلاثة لكفار قريش، ليتحدوا بها المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أشار إلى ذلك مولانا عبد المجيد الداريابادي في ترجمته وشرحه لمعاني القرآن الكريم (١: ٢٨٥ ط. شركة التاج كراتشي/ باكستان مارس ١٩٧١).

جاء القرن في العهد القديم رمزا للقوة والعظمة. وفي الاصطلاح العبري تقول: رُفِعَ قرن قومٍ أو فرد إذا قصدت النصر أو الكبرياء وكسر القرن أو عُضِبَ إذا

أردت الهزيمة. حتى موسى - عليه السلام - يصورونه وله قرنان. ومن المتواتر عندهم أن موسى عندما رجع من ميقات ربه يحمل الألواح نبت له قرنان في جبهته، أو هما رمزان لأشعة نورانية تضيء من رأسه.

وفى قاموس الكتاب المقدس (ص ٧٢٧ ط الانجيلية - بيروت ١٩٦٤) تحديد لهذه المواقع في أسفار وأعداد العهد القديم وحتى في التماثيل التي تصوروها لموسى - عليه السلام - وأهمها ما نحته مايكل أنجلو (أعظم نحاتي عصر النهضة ١٤٧٥م - ١٥٦٤م) تبدو كل مظاهر القوة الجسمية، والعزم والتصميم، كما تبدو القرون النابتة في رأسه.

ومن هنا يبدو الربط بين القرنين والفكر اليهودي، والتحدى الذي أعانوا به كفار قريش على الإسلام.

إلا أن القرآن قيد الشخصية بصفات سنراها فيما نستقبل من آيات، ولكنه في هذا المطلع، ذكر فضل الله عليه، ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ والأرض هنا لا تفهم على إطلاقها، وإنما الأرض التي كان يحيا فيها، أو يمتد إليها سلطانه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٢﴾ أى من كل شيء يحتاج إليه في أمر دينه ودنياه، وما يقوم به من عون لقومه أو لغيرهم، أى: أن أسباب الصلاح والإصلاح كانت متيسرة بين يديه، وفى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٣﴾ ما يدل على تيسر الوسائل يقول الفخر الرازى: (١١: ١٦٦) معناه أنه تعالى لما أعطاه من كل شيء سببه فإذا، أراد شيئاً، أتبع سببا يوصله إليه ويقربه منه.

والأصل في السبب - لغة - عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المقصود، وهو يتناول العلم والقدرة والآلة.

وفى هذه الآيات تتمثل مصادر القوة التي يمكن أن يستقيم بها أمر حاكم:

- أولاً: الأرض التي يتحرك منها وهي القاعدة التي لاغنى عنها لأى حاكم. ولقد كانت القضية الكبرى بعد الإيمان في حياة الرسول ﷺ والذين معه، هى البحث عن الأرض الآمنة التي يتحركون منها، هذا بعد أن رفض القرشيون الإسلام وحاربوه إلا قليلا منهم.. فكان البحث عن مهاجر جديد، وكان الاستقرار في المدينة، ثم الانطلاق منها.

• ثانياً: توفر الموارد البشرية والمادية.. ولم يحدث هذا في مكة، وحدث في المدينة، فكان فيها المهاجرون والأنصار قوة بشرية مؤمنة، وكانت موارد المدينة من زراعة وتجارة وبعض الصناعة، في خدمة الإسلام، وهذه هي الأسباب.

• ثالثاً: القدرة على تحريك هذه الموارد، أو هذه الأسباب، وهى سياسة المدينة الداخلية والخارجية، والتي نقرأها في القصة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

أرأيت أن الحديث لم يكن عن الماضي بقدر ما هو رسم للمستقبل وتخطيط له.

٤٦- ذو القرنين والتاريخ والتفسير

ذو القرنين من الشخصيات التي تناولها التاريخ والتفسير ولا تزال.

لم يذكر القرآن الاسم صريحاً مع أن مدخل القصة هو قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

ونستطيع وهذا ما سننتهي إليه أن نقف عند حدود النص القرآني وما فيه من العبرة طيل الوقوف عند المواطن التي وجهنا إليها، ونمر مسرعين بالمواطن التي أجملها ثم نضم أطراف الحديث، ونحاول فهمها في ضوء الآيات الخاتمة للقصة في السورة.

ونستطيع أيضاً أن نطوف بكتب التفسير والتاريخ لنرى ما جاء فيها عن ذي القرنين وكيف حاولت تحديد الشخصية أو على الأقل ترجيحها، والإطار العام الذي يجمع هذه الأقوال، والمنهج الذي سنتبعه هو الدراسة المقارنة والتحليلية.

ولنذكر أولاً: أن التحدى كان للرسول - عليه الصلاة والسلام - وأن الذين تحدوه هم قريش، وأن الذين أعدوا الأسئلة هم أحبار اليهود في المدينة.

ومن المنطقي أن تكون الأسئلة متصلة من قريب أو بعيد بالتاريخ اليهودي، وهو مادة حياتهم.. فما أهم الدول ومناطق العمران الحضارى التي كان لهم بها صلة؟.